مَناقِبُ الصَّيْد

أشرف الداخل إلى القول فى مناقب الصيد، حديث عن رسول الله ﷺ يقول فيه وقد خرج على نفر من أسلم ينتضلون: «ارموا بنى إسماعيل، فإن أباكم كان راميا. ارموا، وأنا مع بنى فلان». فأمسك أحد الفريقين. فقال ﷺ:مالكم لا ترمون؟ قالوا: كيف نرمى وأنت معهم؟ قال عَليه السَلامُ: «أُرموا وأنا معكم كلكم».

إسماعيل والصيد:

كان إسماعيل عَليهِ السَلام يعيش مع أُمه هاجر فى واد غير ذى زرع عند بيت الله الحرام، وكان لابد لها من طعام، ولم تكن ثمة وسيلة إليه سوى لحمان الصيد فكان إسماعيل يكثر الخروج إليه طلباً للقوت. فلما أدرك الحلم تزوج امرأة من جرهم، وماتت أُمه ودفنت بالحجر عليها السلام.

ويروى أصحاب السنن أن إبراهيم حين جاء لزيارة إسماعيل لم يجده، فلما سأل امرأته عنه أنبأته أنه خرج يصيد. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن فى ضيق وشدة. فأمرها إذا رجع زوجها أن تقرأ عليه السلام، وأن تخبره بأن يغيرِّ عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل وأخبرته الخبر، قال لها: ذلك أبى، وهو يأمرنى بأن أُفارقك. ثم تزوج غيرها. وجاء إبراهيم مرة ثانية فلم يجد إسماعيل أيضًا – ولما سأل عنه زوجته أخبرته أنه خرج يبتغى رزقًا ويطلب صيدًا، فسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن فى خير وسعة، وأثنت على الله عز وجل بما هو أهله. فسألها: ما طعامكم؟ فقالت: لحم

الصيد. فسألها: ما شرابكم؟ فقالت: الماء. فدعا لهم بالبركة في اللحم والماء[١].

ولما همَّ إبراهيم بالقفول قال لها: إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وأخبريه عني، أن يثبت عتبة بابه[٢]، فإنها صلاح المنزل.

ثم لبث إبراهيم عن إسماعيل وأهله ما شاء الله، فجاء إليهم - وإسماعيل يبري نبلاً له، قريبًا من زمزم، تحت دوحة - فلما رآه قام إليه فصنعا ما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم أنبأه أن الله أمره ببناء البيت على أكمة مرتفعة عما حولها. فعند ذلك رفع إبراهيم مع إسماعيل القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني. حتى إذا ارتفع البناء، جاء إسماعيل بحجر فوضعه لأبيه فقام عليه وهو يبني، وهذا الحجر هو المعروف اليوم بمقام إبراهيم، من حيث أنه كان يقوم عليه في البناء، وليس من حيث أنه دفن فيه، فإنه عليه السلام مدفون في مدينة الخليل في فلسطين. فذلك قول الله جل ثناؤه ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مُسلمَين لك ومن ذريتنا أُمَّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾.

الحواريون والصيد:

وإذا كان الصيد قد شرف بمزاولة إسماعيل إيّاه في صيد الوحشيات

(١) ومما يؤثر عن رسول الله في هذا المقام قوله «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لدعا لهم بالبركة فيه».

(٢) العرب تكني عن الزوجة بعتبة الباب.

بالسهام، فإنه قد شرف أيضًا بمزاولة الحواريين إيّاه، على ما يروى سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله: إنما سمّى أصحاب المسيح بالحواريين لبياض ثيابهم، وقد كانوا صيادين. والحوارى هو الناصر الحميم، مأخوذ من الحوارى وهى الدقيق المنقى. وكل مبالغ فى نصرة آخر هو حواريه.

جد رسول الله والصيد:

الجد الخامس لرسول الله ﷺ هو حكيم بن مُرّة. ومن أهل السير من يدعوه «كلاب بن مرة»؛ على أن أحد الاسمين علم عليه والآخر لقب له، وقد ذهبوا فى تعليل هذا اللقب إلى أنه كان صاحب صيد وكانت وسيلته إليه الكلاب، فمن أجل ذلك لقب كلابًا.

وذهب آخرون من أهل العلم فى التعليل لهذا الاسم -لقبًا كان أوعلماً- مذهبًا آخر، فرأوا أن كلابًا مصدر للفعل كالب بمعنى غالب. والكلاب والمكالبة كالغلاب والمغالبة، كلاهما دليل على القوة. فإن المرء لا يغالب ولا يكالب إلا إذا كان قويًا بنفسه وبعصبيته. وبعضهم يرى أن كلابًا جمع كلب وأن العرب تسمى كلابًا كما تسمى أنمارًا وسباعًا. ومهما يكن هذا الاسم ثقيل الوقع فى الأسماع، فإن العرب فى جاهليتهم كذلك كانوا يفعلون، فيختارون لأولادهم الأسماء النابية على قدر ما كانوا يختارون لعبيدهم الأسماء السائغة.. وقد سئل أعرابى: لماذا تسمون أولادكم بشرّ الأسماء، وتسمون عبيدكم بأحسنها؟ فقال: إننا، إنما نسمى أولادنا لأعدائنا، ونسمى عبيدنا لأنفسنا، يريد أن الأبناء عدة إلى الأعداء وسهام فى نحورهم، فهم يختارون أسماء أولادهم لأعدائهم نحو كلب وذئب، كما يختارون أسماء عبيدهم لأنفسهم، نحو مرزوق ورباح، وكأنهم إنما قصدوا إلى التفاؤل بذلك.

وقد كان رسول الله ﷺ يقوّم فيما يقوّم من سلوك الجاهلية هذه الصورة من صور الحياة عندهم، فكان يغير الاسم النابى إلى ما هو آنس للنفوس وألطف فى المسامع، فغيّر صلوات الله عليه اسم «عاصية» إلى «جميلة»، واسم «برة» إلى «جويرية»، كراهة أن يقال إنه خرج من عند برة. وغيّر اسم «أصرم» إلى «زُرعة»، وغير «حربًا» إلى «سلم»، وغير «المضطجع» إلى «المنبعث». بل إنه - صلوات الله عليه - لم يقف فى تغيير الأسماء عند الناس فتعدى ذلك إلى الأشياء حتى سمى الأرض «خضرة» بدلاً من «عفرة»، وسمى «شعب الضلاله» «شعب الهدى».

ومع أنه - صلوات الله عليه - كان أهيب الخلق فى أعين أعدائه وأحبهم إلى قلوب أصحابه، كان من هؤلاء من يأبى النزول عن اسمه إلى اسم سماه هو به عَليه السلام، فقد ذكر سعيد بن المسيب عن أبيه - رضى الله عنه - أنه جاء إلى النبى فسأله صلوات الله عليه عن اسمه، فقال: حزن، فقال له النبى: بل أنت سهل، فسارع الرجل إلى القول بأنه لا يغيّر اسمًا سمّاه به أبوه، ثم علل ذلك بقوله: إن السهل يوطأ ويمتهن. يقول سعيد رضى الله عنه: فما زلت زالت الحزونة فينا بعد.

أسد الله والصيد:

أسد الله وأسد رسوله هو سيد الشهداء وعم النبى وأخوه من الرضاعة حمزة بن عبد المطلب، أرضعته مع رسول الله ومع أبى سلمة ثويبة مولاة أبى لهب. ومن أكرم مناقب الصيد أن حمزة - رضى الله عنه - اعتنق الإسلام، منصرفه من رحلة صيد، وانتصر لرسول الله ﷺ بآلة صيد، وقُتل شهيدًا فى غزاة أُحد بالة صيد، وكان الذى قتله يحمل اسمًا لا معدى عن ذكره فى باب الصيد.

وبيان ذلك فيما ذكر الثقات من أهل السير أن أبا الحكم بن هشام -أبا جهل- مرّ برسول الله عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض مايكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره. فلم يكلمه النبى، وكانت مولاة عبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك وتبصره. ثم انصرف أبو جهل إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس، وانصرف النبى إلى بيته، ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحًا قوسه راجعًا من قنص له وعلى يده صقر[(١)]، وكان إذا رجع من صيده لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلّم وتحدث معهم، وكان أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة، فلما مرّ بمولاة عبد الله بن جدعان، قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبى الحكم بن هشام، وجده ها هنا جالسًا فآذاه وسبّه وبلغ منه ما يكره. ولكنه انصرف عنه فلم يكلمه. فثارت بحمزة العصبية عندئذ واحتمله الغضب[(٢)]، لما أراد الله من كرامته فخرج يسعى لم يقف على أحد كما كان يفعل من قبل وقد قصد أبا جهل، مجمعًا إذا لقيه أن يوقع به. فلمادخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا على دينه، أقول ما يقول، فأردد ذلك علىّ إن استطعت. فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل. فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا. يقول الثقات من أهل السير فى إسلام حمزة: إنه - رضى الله عنه - قال: لما احتملنى الغضب فقلت أنا على دينه أدركنى الندم على فراق دين آبائى وقومى وبت من الشك فى أمر عظيم لا أكتحل بنوم حتى أتيت الكعبة

---

(١) كتاب البيرة

(٢) أثاره

وتضرعت إلى الله أن يشرح صدرى للحق ويذهب عنى الريب، فما استتممت دعائى حتى انزاح عنى الباطل وامتلأ قلبى باليقين، ثم غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمرى، فدعا الله لى بأن يثبتنى على الإيمان. تلك خلاصة قصة اعتناقه الإسلام وانتصاره لرسول الله.

وأما استشهاده بآلة صيد فإنه قتل رضى الله عنه فى غزوة أُحد بحربة، والحربة من آلات الصيد. وخلاصة ذلك أن جماعة ذهبوا إلى وحشى قاتل حمزة يسألونه عن ذلك فقال: لقد حدثت بذلك رسول الله ﷺ، فأنا أُحدثكم به: كنت غلامًا لجبير بن مطعم وكان عمه قد أُصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أُحد، قال لى جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى الذى قتل فى بدر فأنت عتيق، فخرجت من الناس، وكنت رجلًا حبشيًا أقذف بالحربة قذف الحبشة وقلما أُخطئ بها شيئًا، فلما التقى الناس، خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس يهز الناس بسيفه ما يقوم له شىء، فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته[1] حتى خرجت من بين رجليه. فذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات. ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة عتقت ثم أقمت، حتى إذا فتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ليسلموا، تعيّت على المذاهب. فقلت ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد. فوالله إنى لفى ذلك من همى، إذ قال لى رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحدًا من الناس دخل فى دينه وتشهّد شهادة الحق، فلما قال لى ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله المدينة فلم يرعه إلا بى قائمًا على رأسه

---

(١) ثنته: أسفل البطن

أتشهد بشهادة الحق. فلما رآنى قال: أوحشىّ؟ قلت : نعم يا رسول الله. قال: اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة؟ فحدثته، فلما فرغت من حديثى قال: ويحك غيب عنى وجهك فلا أرينك بعد اليوم، فمكثت أتنكب رسول الله حيث كان لئلا يرانى حتى قبضه الله إليه.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، خرجت معهم، وأخذت حربتى التى قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائمًا فى يده السيف فتهيأت له، وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى، كلانا يريده فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه وشد عليه الأنصارى فضربه بالسيف، فربك أعلم أينا قتله؟ فإن كنت قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله، وقد قتلت شر الناس.

وفى هذا الصدد يروى السهيلى أن وحشيًّا حين قدم المدينة قال الناس لرسول الله: هذا وحشى فقال ﷺ: «دعوه، إن إسلام رجل واحد أحب إلى من قتل ألف رجل كافر».

وهكذا يستبين معنى الذى ذكرنا من أن حمزة رضى الله عنه اعتنق الإسلام منصرفه من رحلة صيد، وانتصر للنبى بآلة صيد، واستشهد فى أُحد بآلة صيد والذى قتله يدعى وحشيًّا وهو اسم يذكر فى كل حديث عن الصيد.

ولى عهد فى بعثة صيد:

العرب أساتذة فى فن الصيد، لا يشق لهم فيه غبار. ومهما تكن الرواية عنهم فى هذا الباب محاطة بكثير من المبالغة والإغراق، فإن الأساس صحيح، والحقيقة قائمة لا ينبغى أن يرتاب فيها من يحسن النظر إلى الأمور، ويرى

مبلغ أثر البيئات فى العقائد والسلوك، فما ظنك بأمر يقوم عليه أمن العرب وحماية أموالهم وحرماتهم، وتحصيل أرزاقهم وأقواتهم، وذلك كله مرتبط بإحسان الرماية ودقة التسديد، وقد بلغ العرب فى هذا المجال مبلغًا كانوا فيه أساتذة لا يدفعون عن موضع الصدارة منه، حتى لقد وصفوا بأنهم رماة حذق، ثم أجروا ذلك المعنى مجرى الحكم المسلمة فقالوا: الرامى إذا حذق لم يخطئ الحذق.

والذى يتأمل فى شعر أولئك القوم ونثرهم، يرى أنهم لم يبلغوا هذه المنزلة من إحكام الرماية وحذق فن الصيد بكل ما يتصل به ويشتمل عليه، إلا ولهم فى ذلك الميدان ماض عريق. على أن دقة التسديد وإحكام الرمى لم يستجب لهم إلا بعد أن أحاطوا بالوحشيات علمًا، فعرفوا - بطول مخالطتهم لها - ما يدور فى خواطرها، ويتدسس فى أعماق ضمائرها، وتهيأ لهم أن يعرفوا بالضبط متى تصاد وكيف تصاد.

ولقد عرف الفُرْس هذه الأستاذية للعرب الذين جاوروهم منذ آلاف السنين. فروى المؤرخون أن فى عهد يزد جرد الأول أرسل الملك ولى عهد بهرام إلى عرب الحيرة لينشأ بينهم، ويتلقى فن الصيد عنهم، وينعم بطيب الهواء وجودته فى بيئتهم التى تصح بها الأجساد، وتصلح عليها النفوس.

وقد كان ذلك فى عهد النعمان الأول، فتعلم بهرام الصيد، وتعلم معه العربية وكان ذلك داعية إلى توثيق الروابط بينه وبين هؤلاء العرب الذين نشئوه وعلموه فلما نازعه أخوه على الملك بعد وفاة يزد جرد، عاونه العرب وتعصبوا له، ولما اعتلى العرش، لم ينس ما كان لعرب الحيرة عليه من يد طائلة، فقرَّبهم ووثق بهم وطمأن إليهم وأعلى من شأنهم.

obeikandi.com

فالصيد عمل شريف يسعى إلى حذقه الأكاسرة، وهم رءوس دولة ذات حضارة ويحاولون أن يتلقوه عن العرب.

ومما يتمم هذه المنقبة له أن الملك من ملوك فارس، كان إذا أراد الركوب إلى الصيد، أخذ أصحاب ركابه سوطه فدفعوه إلى أخص بطانته، ثم دفعه هؤلاء إلى الخدم، فأدخله الخدم إلى موضع نسائه، فتناوله إياه امرأة منهم، ثم يخرج من عندها والسوط فى يده، فإذا ركب الملك إلى سائر المواضع سوى الصيد والحرب، فإنه يتناول السوط من حيث الموضع الذى يركب منه، وهم كانوا يرون فى ذلك تكريمًا للصيد كما يرون فيه تكريمًا للحرب. والصيد بلا ريب نوع من أنواع الحرب فى أيام السلم.

ولقد بلغت عناية أُولئك القوم بالصيد واعتزازهم به أن أحدهم كانت تُنصب له الجوارح على كنادرها[1] من ناحية وساده نحو رأسه، والضوارى والكلاب والفهود من ناحية ممد رجليه، والخيل أمامه أو على يمينه، ولم يكن الواحد منهم يرى أن يخلو سمعه من زقاء جارح، ونباح ضار، وصهيل فرس، وكان كل مَن يشهد معه الصيد من خاصته وبطانته، يحوش عليه الوحشيات من الحمر والظباء، حتى يكون هو الذى يصطادها إلا إذا أذن بغير ذلك لمن شاء كيف شاء.

قال بياز العزيز بالله ملك مصر: وقد كانت لبهرام أحد قواد هرمز من ملوك الساسانيين، جارية أثيرة عنده، فاقترحت عليه ذات يوم أن تحضر الصيد معه شغفًا به ونزاعًا إلى مشاهدة الطراد فيه، فبينما هى معه إذ عنّ لها سرب ظباء، وكان الرجل من جودة الرمى على مالم يكن عليه سواه، فقال لها: أراك مشغوفة بالصيد، فكيف تحبين أن أرمى هذه الظباء؟ فقالت الجارية

(١) كنادر جمع كندرة، وهى مجثم البازى، يهيأ له من خشب أو مدر. والكلمة دخيلة ليست بعربية

تتحداه لتنهنه من غروره: أريدك أن تجعل ذكورها إناثاً، وإناثها ذكورًا. ففهم إشارتها وقدر أنها توهمت عليه العجز عما التمسته منه، وأنها حاولت بطلبها هذا أن تظهر من نقصه حتى تفت من عضده عند من حضره من أهل مملكته، فقال في كبرياء المستبد: ما سألت شططًا. ثم رمى التيوس من الظباء فألقى قرونها فصارت كالإناث، وجعل يرمى كل واحدة من الإناث بسهمين فيثبتها في موضع القرنين، فتعود الظبية كأنها تيس، فلما تم له ذلك على ما طلبت منه الجارية، عطف عليها فقتلها خوفًا من أن تسومه بعد ذلك بفضل همتها وقرحها، خطة يقصر عنها فيفتضح.

وأنت رحمك الله - مهما يكن جلال منصبك وعزة نفسك، إذا رأيت نفسك مقسم الرأى في مناجزة أعداء ومطاردة خصوم، فإنك تضرب لنفسك مع هؤلاء مثلاً لا تستنكف معه أن تكون كلب صيد، وأن يكون أعداؤك سرب ظباء، فذلك حيث تقول ما ذكره الأصمعى عن الحارث ابن مصرف.

تفرّقت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

ولا شك أنك ترى في هذه المنقبة للصيد فخارًا له ولسائر من يمارسه من السادة والصعاليك، فإنهم جميعًا تجمعه على سواء.

قدوة في الصيد:

إنه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور، وكان عالماً يجهل مكانته أحد من أهل العلم وأئمتهم. وكذلك كان خليفة حازمًا بصيرًا بأمور السياسة بصيرة بشئون العلم. روى الثقات أنه دعا إليه ذات يوم إمام دار الهجرة مالك ابن أنس - رحمه الله - فقال: يا مالك إنه لم يبق في الناس عالم إلا أنا وأنت، وقد شغلتني أمور الخلافة، فألّف أنت للناس كتابًا، وطئه لهم توطئة،

ومهده تمهيدًا، متجنبًا فيه شدائد ابن عمر ورخص ابن عباس وشواذ ابن مسعود، وسوف أحمل الناس عليه فى الأمصار.

يقول مالك: فوالله لقد علمنى التأليف يومئذ.

ومع ذلك كان يركب إلى صيده مشمرًا من ذيله وعلى يده بازى. وذات يوم صنع ذلك فعبر الجسر باديًا، ثم انكفأ فعبر الآخر راجعًا وقد تبينه الناس، فلما عاد واستقرَّ به مجلسه سأل الربيع: ماذا قال الناس فى ركوب أمير المؤمنين على هذه الحال؟ قال الربيع: إنهم عجبوا منها، قال أبو جعفر: إنه كان لأمير المؤمنين فى ذلك مذهب، وهو أنه سيأتى من أبنائنا من يحب الصيد ويتبذل فيه، فأحببت أن يكون منى ما رأيت؛ فمتى فعل مثله منا فاعل بعدى، قال الناس: قد ركب المنصور على مثل هذه الصورة، فرأوا أن له بأسلافه قدوة فعذروه.

وكذلك كان المهدى – مع ما كان فيه من الحذر والتحفظ والبعد من التبذل – مشغوفًا بالصيد، لا يكاد يغبه وكان مع ذلك مجدودًا فيه لا يحرم.

وكذلك كان للرشيد حظ من الصيد، فكان يرتاح له إذا حضره ارتياحًا شديدًا، حتى تحمله الأريحية على ركض فرسه والشد فى أثر الطريدة. وكذلك كان الأمين والمعتصم والمعتضد.

وليس من شأننا أن نستوعب هذا الباب وحسبنا منه هذه الإلمامة بأبرز صورة. وقد أجمل مناقبه الأصمعى رحمه الله فى قولته:

سمعت بعض الملوك وهو يركض خلف كلب وقد دنا خطمه من عجب ذنب الظبى وهو يقول مخاطبًا الكلب: إيه فدتك نفسى.

وأنت إذا تأملت هذه المناقب التى عرضناها عليك رأيت أن العرب كانوا يعتزون بمفاخر أسلافهم ويحرصون عليها.

وقد كان الصيد أحد معايشهم بغير شك لا فرق فى ذلك بين العرب العاربة والعرب المستعربة. فغير معقول أن يحتقر الصيد فى شعر يُروى أو قول يؤثر إلا إذا كان لذلك الشعر أو القول مخرج لم يتهيأ للذين نظروا فيه، أو تهيأ لهم ولكن الرغبة فى الحجاج والغلب بأية سبيل حملهم على أن يتجاهلوا هذا المخرج فيرووا من شعر العرب الفحول ما يدل على أنهم يستذلون الصيد ويحقرون الصياد على ما روى من قول عمرو بن معدى كرب الزبيدى.

أبنى زيــاد أنتم فى قــومكـم ... ذنب ونحن فروع أصل طيب
نصل الخميس إلى الخميس وأنتم ... بـالقهـر بـين مـربق ومكلب
لا يحسبن بنو طليحه حـربنا ... سوق الحمير بحانة فالكوكب
حيد عن المعروف سعى أبيهم ... طلب الوعول بوفضة وبأكلب
حتى يكهن بعد سيب تـامـل ... تـرحالـه من كـاهن متكـذب

فهذا الشعر - عند التأمل - ليس احتقارًا للصيد على الإطلاق، وإنما هو بقية الحمية الجاهلية والاعتزاز بالقوة والعصبية، والافتخار بالغارة الظالمة. دون نظر إلى المعانى الكريمة الكبيرة التى جاءهم بها الإسلام، ينهاهم عن العصبية التى ينصر المرء فيها أخاه ظالماً أو مظلومًا، كما نهاهم عن التغاور والتناهب؛ والتماس الرزق من أخس وجوهه، فالذين أعرضوا عن ذلك ففخروا بأنهم ليسوا أهل صيد ولكنهم أهل غارات، لم يتقيدوا فى ذلك بأدب الله وأدب رسوله ﷺ. ولا نشك فى أن هذه الأبيات المنسوبة إلى عمرو بن معـدى كرب الزبيدى صاحب رسول الله، إنما كان قد قالها قبـل أن يشرح الله صدره للإسلام وهو الـذى كان حمى الأنف فلم يكن يـطيق أن ينال من كبريائه أحد ولو كان أمير المؤمنين، فقد قال لـه فى كلمته المـأثورة التى

obeikandi.com

أسلفناها فى هذا الباب: «الحمى أضرعتنى لك»، يعنى – رحمه الله – أنه لولا الإسلام نهنه فى نفسه العصبية وحمية الجاهلية لكان له مع أمير المؤمنين موقف آخر يدفع به عن نفسه ما كان يدفع به عن نفسه فى الجاهلية. ولكن الإسلام منعه من ذلك فأوهن قواه بما جعله لايرد على أمير المؤمنين – رضى الله عنه –.

وقد بقيت بقايا من هذه الحمية الجاهلية بعد الإسلام على ما يرى المتأمل ذلك فى قصيدة قريظ بن أنيف التى يقول فيها:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا
لكن قومى وأن كانوا ذوى عدد ... ليسوا من الشرفى شيء وإن هانا
يجزون من ظلمأهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قومًا إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانًا وركبانا

فهذا الشعر قاله قائله بعد الإسلام، ولكن أعلام الجاهلية خفاقة فى أجوائه والشاعر يضيق بقومه لأنهم طيبون، ويتمنى أن يبدله الله بهم أهل غارات ونهب وسلب.

فهذا الشعر من نوع ذلك الشعر الذى قاله عمرو بن كرب الزبيدى مفتخرًا فيه بأن قومه لا يعيشون على الصيد كما يعيش الآخرون الضعاف الذين يعجزون عن الغارة والسلب والنهب ولو كانوا ظالمين.

فليس فى ذلك غض من مناقب الصيد وفضائله.